



yehiatrakhawy@hotmail.com

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

#### مقدمة:

نواصل اليوم هذا النشر المتقطع من هذا الكتاب، لعله الأهم، أن نُقرأ نشرة اليوم التي سنقدم فيها الفصل الخامس، وأوصى بالبداية بقراءة نشرة الأسبوع الماضي.

يحيى الفصل الخامس في نقد النظرية ( محاولة ليست موضوعية تماما)

#### مقدمة (2) :

لا أظن أن ما يسمى "بالنقد الذاتي" هو نشاط موضوعي بالدرجة الكافية، وعلى هذا فاني سوف أحاول أن أتجنب خداع نفسي - والقارئ - فلا أزعم أني أقدم نقدا ذاتيا، وإنما سأحاول أن أسمع الرأي الآخر - القائم في داخلي غالبا - وهو ما أكاد أسمعه في نفس الوقت من قارئى وزملائي وطلبتى - لأحاوره بما أستطيع، ولنستعير لعبة "نعم ... ولكن" من "إريك بيرن" نمارس بها هذه التجربة:

1 - ان هذه النظرية - الفرض - بها درجة عالية من فرط التضمين: (3)

"نعم"، "ولكن": "طبيعة المخ البشرى، والوجود البشرى شديدة التعقيد لدرجة تحذر من أى اختزال أو تبسيط، وعلينا أن نغامر بدرجة من التضمين الذى هو أحد أطوار تجليات الإبداع: حتى يمكن أن نستوعب تنافر المعلومات الجزئية الواردة إلينا من مصادر متناقضة ظاهريا.

2 - ان هذه الفروض ذات طبيعة تأملية أكثر مما ينبغى،

"نعم"، "ولكن": "إن هذا التأمل لم يأت من النظر الاستبطاني أو الخيال الفردى أساسا، "ولكن" من خلال ممارسة المهنة، ثم راح يتعدّل دوما بهذه الممارسة نفسها، والممارسة هنا وفى هذه المهنة بالذات وفى حدود هذه المهنة- تتعدى الملاحظة والاستبطان الى المعاشية فالدرابية فالبصيرة فالتنظير فالنقد المتجدد المستمر.

3 - تبدو هذه النظرية بيولوجية أكثر مما ينبغى: بما يخشى معه أن يتضاءل تقييم دور المجتمع والبيئة والتعليم.

"نعم"،

"ولكن": "هذا هو ما يبدو من النظرة العاجلة، إلا أن المراجع الأمين لابد وأن يدرك أن كل هذا

لا أظن أن ما يسمى "بالنقد الذاتي" هو نشاط موضوعي بالدرجة الكافية، وعلى هذا فاني سوف أحاول أن أتجنب خداع نفسي - والقارئ - فلا أزعم أني أقدم نقدا ذاتيا، وإنما سأحاول أن أسمع الرأي الآخر - القائم في داخلي غالبا - وهو ما أكاد أسمعه في نفس الوقت من قارئى وزملائي وطلبتى - لأحاوره بما أستطيع

لنستعير لعبة "نعم ... ولكن" من "إريك بيرن" نمارس بها هذه التجربة

ان هذه النظرية - الفرض - بها درجة عالية من فرط التضمين (3): "نعم"، "ولكن": "طبيعة المخ البشرى، والوجود البشرى شديدة التعقيد لدرجة تحذر من أى اختزال أو تبسيط، وعلينا أن نغامر بدرجة من التضمين الذى هو أحد أطوار تجليات الإبداع

ان هذه الفروض ذات طبيعة تأملية أكثر مما ينبغى، "نعم"، "ولكن": "إن هذا

التأمل لم يأخذ من النظر الاستبطاني أو الخيال الفردي أساساً، ولكن من خلال ممارسة المهنة، ثم راح يتعدّل دوها بهذه الممارسة نفسها

الممارسة هنا وهي هذه المهنة بالذات وفي حدود هذه المهنة - تتعدى الملاحظة والاستبطان الى المعاشية فالدراية فالبصيرة فالتنظير فالنقد المتجدد المستمر

تبدو هذه النظرية بيولوجية أكثر مما ينبغي: بما يخشى معه أن يتضاءل تقييم دور المجتمع والبيئة والتعليم . "نعم،" \* "ولكن": هذا هو ما يبدو من النظرة العاجلة

أن المراجع الأمين لابد وأن يدرك أن كل هذا النبض البيولوجي المستمر هكذا، كذلك التنظيم الهمبريكي، والفكر الإيقاعي، كل ذلك - بالنسبة للكائن البشري - مرتبط بالبيئة والمحيط، امتداداً في التاريخ، بما يشمل الذاكرة الجينية والتعلم المنطبع الموروث

الأمل في تحويل الانسان بيولوجيا من خلال تهيئة بيئة أظلم وتعلم أنسب هو نابع أصلاً من هذا اليقين بأثر البيئة في السلوك، ذلك الأثر القادر على الامتداد في الأجيال اللاحقة وعلى تغيير التركيب البيولوجي نفسه

أن هذه الأحياء التي نجدها أن تقاوم الانقراض قد استطاعت أن "تبدع" و "تتعلم" و "تبقى" و "تستمر" دون برامج تعليمية مضمّنة أو فيسبوك أو تواصل

النبض البيولوجي المستمر هكذا، كذلك التنظيم الهمبريكي، والفكر الإيقاعي، كل ذلك - بالنسبة للكائن البشري - مرتبط بالبيئة والمحيط، امتداداً في التاريخ، بما يشمل الذاكرة الجينية والتعلم المنطبع الموروث، وبالتالي فالأمل في تحويل الانسان بيولوجيا من خلال تهيئة بيئة أصلح وتعلم أنسب هو نابع أصلاً من هذا اليقين بأثر البيئة في السلوك، ذلك الأثر القادر على الامتداد في الأجيال اللاحقة وعلى تغيير التركيب البيولوجي نفسه، وهذا ما أوصينا به سابقاً أن نتعلمه من الأحياء قبلنا، كما أن هذه الأحياء التي نجحت أن تقاوم الانقراض قد استطاعت أن "تبدع" و "تتعلم" و "تبقى" و "تستمر" دون برامج تعليمية مضمّنة أو فيسبوك أو تواصل اجتماعي أو مدارس خاصة أو وزارة ثقافة، أو إغارة إعلام أو فرط معلومات، أو كليات طب، أو مستشفيات نفسية، وربما يحفزنا ذلك إلى التعلم منها أكثر فأكثر، ونحن نتفهم ممارستها لما هو الوعي الجماعي وانتصارها على مخاطر البيئة مع الحفاظ على ما ينفعها منها بنجاح، وعلينا أن نضيف ما تيسر في نفس الاتجاه، ونحن ننتبه إلى احتمال انحرافنا بعيداً عن كل هذا بما نتصور أنه إنجاز بشري وهو ضد هذا التوجه، إن كل ما آمله بهذه الإفاقة هو أن نكف عن الإسهام بالإسراع نحو الانقراض، وذلك بأن نسهم في مواكبة المسيرة الحيوية الطبيعية ودفعها إلى غايتها!!

4 - إن التأكيد على سرمدية الإيقاع الحيوي، وتلقائية الإبداع المستمرة قد يوحي بالقبول بنوع من القدرية أو الاعتمادية السلبية، مادام كل شيء ينبض تلقائياً نحو الإبداع والتطور، في الأحوال العادية بقوانين عامة.

"نعم، يبدو ذلك،" \* "ولكن": إن الأحياء التي انقرضت، وهي أغلبية ساحقة (999 من كل ألف من كل الأحياء عبر التاريخ (:لا بد وأن تتبهدا إلى ضرورة الأخذ بمزيد من التعلم من الأحياء التي بقيت، حتى نسهم في توجيه نبض الإيقاع الحيوي لدينا إلى مساره الإبداعي والإيجابي، مادامت هذه الحقائق تقفز في وجوهنا هكذا فإن علينا أن نقبل التحدي ونضاعف الجهود لتجنب المصير الخطير (الذي عجزت الأغلبية عن تقاديه.!!)

5 - هذه الفروض تبدو وكأنها تخدم هدفاً ميثافيزيقياً يدفعها نحو غاية بذاتها:

"نعم: .. لا أستطيع أن أنكر هذا أو أستبعد ذلك،

" \* "ولكن" وقفة مراجعة لهذه الكلمة "ميثافيزيقياً"، قد تتبهدا الى احتمال إلغائها أصلاً، إذا ثبت أن ما كنا نطلق عليه هذه الكلمة: ما هو إلا "فيزيقاً" "أخرى"، وليس ضرورياً أن أرى نهاية المسار الآن تحديداً حتى أتمكن من تصور امتداد الخط الحالي إلى غاية لا أعرفها بقدر كافٍ، إن كل ما عليّ مادمتُ قد حددت الاتجاه السليم هو أن أواصل التقدم كدحا إليه، ثم إن مجرد رفض ما لا أعرف، أو ما لم أُثبِت، تحت زعم أنه "ميثا" Meta أبعد من تقديراتي: هو ليس موقفاً إبداعياً حياتياً مناسباً.

6 - هذه النظرية تلوح بـ "رطان" جديد بالنسبة لتشخيصات المرض النفسي وفناته:

"نعم: .. وأنا أوافق من حيث المبدأ على هذا التحذير،" \* "ولكن": ألا يدل التعدد الحالي على أن أغلب التقسيمات والتسميات الموجودة لهذه الأمراض - ان لم يكن كلها - قد وقفت عاجزة عن الإحاطة بالظاهرة التي نسميها المرض النفسي، وبالتالي فقد نكون أحوج إلى تجاوز هذا الخلط والجمود الناتج عن الاكتفاء بالظاهر أو المبالغة في التقريب، ثم علينا ألا ننسى أننا أحوج ما نكون إلى قراءة المرض والمريض، وليس مجرد الاتفاق على معنى سلوك معين نسميه عرضاً، يسمح لنا أن نعلق لافتة لها اسم مرض معروف على مرضانا، فيتجمعون في مجموعات ليست بالضرورة متجانسة لا نعرف ماذا تعني، حيث أنه بالرغم من نجاح كل محاولات الاتفاق على دليل موحد لتسمية الأمراض، لم ينجح أي دليل منها

اجتماعي أو مدارس خاصة أو وزارة ثقافة، أو إلمار إلام أو فرط معلوماء، أو كليات طب، أو مستشفيات نفسية

يحفزنا ذلك إلى التعلم منما أكثر فأكثر، ونحن نتفهم ممارستها لما هو الوعي الجماعي وانتصارها على مخاطر البيئة مع الحفاظ على ما ينفعها منها بنجاح

إن التأكيد على سمدية الإيقاع الحيوي، وتلقائية الإبداع المستمرة قد يوحى بالقبول بنوع من التقديرية أو الاعتمادية السلبية، مادام كل شيء ينبض تلقائياً نحو الإبداع والتطور، في الأحوال العادية بقوانين عامة

نعم، يبدو ذلك، \* "ولكن": إن الأحياء التي انقرضت، وهي أغلبية ساحقة (999 من كل ألف من كل الأحياء عبر التاريخ): لابد وأن تنبهننا إلى ضرورة الأخذ بمزيد من التعلم من الأحياء التي بقيت، حتى نسهم في توجيه نبض الإيقاع الحيوي لدينا إلى مساره الإبداعي والإيجابي

هذه الفروض تبدو وكأنها تخدم هدفاً ميثافيزيقياً يدفعها نحو غاية بذاتها: "نعم..": لا أستطيع أن أنكر هذا أو أستبعد ذلك، \* "ولكن" وثقة مراجعة لهذه الكلمة "ميثافيزيقياً"، قد تنبهننا إلى احتمال إغنائها أصلاً، إذا ثبت أن ما كنا نطلق عليه هذه الكلمة: ما هو إلا "فيزيقاً" أخرى

ليس ضرورياً أن أرى نهاية

إلا أن يحقق درجة عالية من "الثبات" والاتفاقية Reliability دون أي درجة مقبولة من المصدقية!! Validity ولعل المحاولات الحديثة تمثل هذا المنطق، وما يرتبط به من تخطيط النفسراضية التركيبية التي تتعامل مع معنى المرض وغائته ونحن نحاول أن نرصد ما جرى من تغير في التركيب والعلاقات بين مستويات الوعي، والوجود في كل مرض ومريض، لعل كل ذلك يسهم في إتاحة الفرصة إلى مزيد من المصدقية المرتبطة أكثر بمهمة العلاج، المرتبط بخطوات الإصلاح وإعادة التنظيم.

7- يبدو في ثنايا هذه الفروض شيء أشبه بالحمية البيولوجية: بالنسبة للاهتمام أكثر بالذاكرة الجينية، وتلقائية الإيقاع الحيوي، ولزوم الاستعادة، بحيث يُخشى أن يتضائل بذلك مفهوم الإنسان ككائن حر مختار مسئول يشارك بقدر كاف في تحديد مساره ومصيره.

"ربما"، \* "ولكن": علينا أن ننتبه أن التقليل من قيمة المحتوى الشعوري والرمزي لا يعنى تلقائياً فتح الأبواب دون تحفظ لافتراضات حدسية لا تقبل الاختبار والنقد والتحوير، بل لعل معرفة الإنسان بطبيعته الدورية، وأصله الحيوي، وتحديدته لتوقيت وطبيعة أطوار البسط التي تحتاج أكبر قدر من المرونة والسماح لإطلاق الإبداع، وكذا إمامه بأطوار التمدد التي تحتاج دقة أكبر في تحديد التناسب والجرعة بالنسبة للمعلومات المدخلة استعداداً لبسط أنجح، لعل كل ذلك يجعل الأمل متجدداً دائماً، ويلزم المعالج والمُربى، وكل من يهيم الأمر، ببقظة دائمة باعتبارهم من أهم المتغيرات التي تتحكم في طبيعة النبض ونتاجه، ثم إنه إذا كان لا يُصلح العطار ما أفسد الدهر - كما كررنا مراراً - فإن الأرجح من خلال هذا المنظور الحركي الإبداعي أن نتوقع أن يُصلح الدهر الفن ما أفسد أحسن الدهر المقرب الرقمي، بمعنى أن ما نقص أو انحرف أو أجهض في أزمة نمو سابقة (نبضة نمو) يمكن أن نتعلم منه ونلحقه ونحسسه في الأزمة التالية، حتى لو انتظرناها سنوات حسب "إريك إريكسون"، ويمكن بذلك أن نعتبر تلك الفروض وهذه الجهود جزءاً من حركية الدهر الفن القادر على إصلاح ما أفسد الدهر فهي إفراز جهود إيجابيات الدهر أيضاً، أما بالنسبة للدورات اليوماوية التي تتيح لنا إعادة الولادة كل ليلة، فالفرص بلا حصر لاستعادة فاعلية وإيجابية الإيقاع الحيوي إذا أحسنا التحضير لاستيعاب نبضاته، والاستماع إلى همسه، ليس بحكي الأحلام وتفسيرها ولكن باستيعاب أثرها إيجابياً باستمرار، ولهذا فإن وصف هذه النظرية بالتحيز لما يسمى "التفاؤل العلاجي" قد يكون في محله.

8- إذا صح أن كل الناس عندهم نفس الترتيب البيولوجي الهرموني منذ الولادة: فكيف نفسر أن بعضهم دون غيرهم يرثون هذا المرض دون ذلك..؟

"نعم": .. إن نفس الترتيب موجود عند كل الناس،

"ولكن" الحاصل أن النسب تختلف بين الأفراد، بل وبين نوع أفراد نفس القطاع للجماعة الحيوية التي انحدر منها هذا الفرد (أو تلك العائلة)، كما أسلفنا، كذلك فإن أغلب المرض النفسي والعقلي ليس وراثياً بالمعنى المباشر، وطبيعة إطلاق هذه المستويات ونسب وطريقة تدعيم أو إعاقة كل منها في مختلف مراحل النمو وهي تتبسط الواحد تلو الآخر، كل ذلك متغيرات بالغة الأهمية في تحديد أثر الوراثة في ظهور هذا المرض أو ذلك، بل إن أغلب الدراسات الأحدث تشير إلى منطقة مشتركة بين الجاهزية للمرض النفسي والقدرة الفائقة على الإبداع بما يسمح بأن نأمل في إمكانية تحويل المسار إلى نقيض المرض من إبداع خلاق، بل - مرة أخرى - إن احترام استمرار هذا الإيقاع الحيوي مع ما أشرنا إليه من أننا نؤلد كل ليلة من جديد) الحمد لله الذي أحياناً بعد ما أمانتى وإليه النشور) يفتح الأفاق لاحتمالات التصحيح وقاية وعلاجاً، ليس فقط مع كل أزمة نمو، ولكن كل ليلة، وربما كل لحظة.

## الخلاصة:

لست أطمع من طرح هذه المقدمة الموجزة لهذه الفروض العريضة أن تلقى قبولا، أو رفضا قد تستحقه، ولكنى أمل في أن تؤخذ مأخذ الجد في كل حال، بحيث يمكن أن تعلق حاجتنا إلى اقتحام المآزق التي تضيق علينا كل يوم أكثر فأكثر، نقتحمها ربما بفروض مغايرة، وربما بتوليد فروض أقدر على التطبيق والتحقيق بمنهج متطور مناسب تُخْتَبَرُ فائدته على أرض الواقع، وليس في صفحات المجلات والكتب وأنايب اختبار المعامل فحسب.

ثم لعل هذه المقدمة تستطيع أن ترد إلينا حقنا في شرف التفكير - مع احتمال الخطأ - ما دما قد رأينا ما يستأهل إعادة النظر، فحاولنا أن نهتدي إلى ما يمكننا من إعادة الصياغة، ولم نتردد في تسجيل هذا أو ذاك سعيا إلى المشاركة.

.....

(ونكمل غداً)

تقديم الفصل السادس: "أسباب المرض النفسي: من منظور إيقاعحيوي تطوري"

- [1] انتهيت من مراجعة أصول "الطب النفسي الإيقاعحيوي التطوري" وهو من ثلاث أبواب: وسوف نواصل النشر البطيء آملا في حوار، منشورات جمعية الطب النفسي التطوري (2021) (تحت الطبع)

- [2] أصل هذا النقد كتبته بعد انتهائي من نشر المسودة الأولى للفرض الأصلي، ثم وصلني خلال الثلث قرن الذي مضى على كتابته ما يرد عليه - أعني عليّ - ولو نسبيا، وعلى ذلك فقد حاولت أن يشمل الرد بعض ما وصلني من الإنجازات الأحدث في العلم المعرفي عامة والعلم المعرفي العصبي والنيوروبولوجي خاصة، وأيضا ما تيسر من العلوم الكوانتية والحاسوبية وعلوم التطور.

[3] - Over inclusion

إرتباط كامل النص مع المقترحات:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD150122.pdf>

إرتباط كامل النص:

<https://rakhawy.net/%d9%85%d9%82%d8%aa%d8%b7%d9%81%d8%a7%d8%aa-%d9%83%d8%aa%d8%a7%d8%a8-%d8%a7%d9%84%d8%b7%d8%a8%d9%86%d9%81%d8%b3%d9%89-%d8%a7%d9%84%d8%a5%d9%8a%d9%82%d8%a7%d8%b9%d8%ad%d9%8a%d9%88%d9%89-%d8%a7-12/>

المسار الآن تحديداً حتى أتمكن من تصور امتداد الخط العالي إلى غاية لا أعرّفها بقدر كافي، إن كل ما عليّ مادامه قد حددته الاتجاه السليم هو أن أوصل التقدم كذا إليه.

هذه النظرية تلوح بـ "رطان" جديد بالنسبة لتشخيصات المرض النفسي وفئاته: "نعم..": وأنا أوافق من حيث المبدأ على هذا التحذير،\* "ولكن": ألا يدل التعدد العالي على أن الخلق التفسيرات والتسميات الموجودة لهذه الأمراض - إن لم يكن كلها - قد وقفت حاجزة عن الإحاطة بالظاهرة التي نسميها المرض النفسي

علينا ألا ننسى أننا أحوج ما نكون إلى قراءة المرض والمريض، وليس مجرد الاتفاق على معنى سلوك معين نسميه عرضاً

## شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رفياً بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2022 1 " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار الحادي عشر)

الشبكة تدخل عامها 22 من التأسيس و 19 على الويب

22 عاماً من الضج... 19 عاماً من الإنجازات

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>